# «أبناء رفاعة: الثقافة والحرية»:
# عناصر نجاح المثقفين أو فشلهم في أداء دورهم!

أصــدرت دار الشروق طبعتين من كتاب بهــاء طاهر «أبناء رفاعة: الثقافــة والحرية» خلال عامي ٢٠٠٩ و ٢٠١١. كانت طبعته الأولى قد صدرت عن دار الهلال عام ١٩٩٣.

هذا كتاب (موضوعي) يقدم في جانب منه اطلالة على أهم (العناصر) الحاكمة (للعلاقة)، في مصر تحديدا خلال القرن ونصف القرن الأخير، بين (دور) المثقفين وبعث الحركة و(التطوّر) في المجتمع ان سلبا أو ايجابا!

ويحســب لبهاء طاهر رصده بوعي وذكاء (عناصر) نجاح المثقفين (أو فشــلهم) في أداء دورهم أو رسالتهم نحو تطوّر المجتمع الذي يعيشون فيه، وهي التي سنعرض لها فيما يلي:

• ضرورة وعــي المثقف بالمرحلة التي يعايشــها المجتمع ونوع الجهد المطلــوب بذله للعمل في تلك الفترة، وخير مثال لذلك هو «عبد الله النديم»، ابن النجار الذي علم نفسه بنفسه، والذي اشتغل قبل الثورة موظفا صغــيرا وتاجــرا ومعلما، وتنقل خلال ذلــك في أقاليم مصر المختلفة، ثم اشــتغل بالصحافة والأدب والمسرح والعمل السياسي السري قبل أن يظهر أثناء الثورة كما لو كان مؤسسة اعلامية كاملة.

• «لابــد للمثقــف كي يؤدي وظيفته هذه أن يظلّ في مركز الصدارة وأن يكون قــادرا على التأثير». ومن أمثلة ذلك علاقة «أحمد عرابي»، قائد الثورة العرابية بـ«عبد الله النديم» والشــيخ «محمد عبده». لم يكن لأيّ منهما منصب رســمي ولا كان عضــوا في مجلس القيادة، لكن عــرابي كان يعتبرهما من قادة الثورة، بل مــن أبرزهم، وكان عرابي يطلب منهما دائما النصح والمشورة، وكان النجاح الأول للثورة يرجع الى مابذلاه من جهد لتوعية الجماهير وتثقيفها.

• وعــي المثقــف باللغــة المطلوبة في التعامل مع الناس لتوصيل رســالته ببســاطة اليهــم، وخير مثال كان أيضــا «عبد الله النديم»، وكان عنوان الصحيفة التي أسســها وقت الأزمــة بين مصر وأوروبا، هو «التنكيت والتبكيت»، استفاد في تحريرها من خبرته الواسعة بالحياة الشعبية المصرية، فاختار لتحريرها لغة أقرب الى

العامية يشرح فيها للناس بتلك اللغة المبسطة أخطار التدخل الأوروبي ومعنى التمثيل النيابي.

• ضرورة لجوء المثقف الى الأسلوب الأمثل لمخاطبة أبناء الشعب الذين تغلب عليهم الأمية. وهو ما قام به أيضا «عبد الله النديم»، حين كانت المعركة الأساسية هي اصدار الدستور وضرورة التفاف الشعب حوله، فلجأ الى أسلوب جديد يتقنه تمام الاتقان، وهو الخطابة، لتغلب الأميّة على السواد الأعظم من الشعب الذي لا يقرأ، فراح يجوب أنحاء مصر يخطب في القرى والمدن الصغيرة بلغة مفهومة لا تعقيد فيها.

• أن يكون للمثقف بالمقابل مكانة وأهمية خاصة لدى الشعب. وخير مثال في هذا السياق علاقة «عبد الله النديم» بالشعب الذي أواه واحتضنه في سنوات اختفائه الطويلة من قوات الاحتلال وجند الخديوي. وقد نعلم أن أهل القرية التي وشى واحد من سكانها بمكان النديم قبل القبض عليه قد أنزلوا بذلك الواشي عقابا رهيبا، اذ قاطعته القرية كلها ولم يبادله واحد من سكانها كلمة واحدة الى أن مات قهرا وكمدا!

• قد تؤثر «ثقافة العصر» على المثقف فلا يفطن الى ما يكتنف موقفه من خلل. ولعلّ خير مثال هو النظر الى تعليق الجبرتي على ما جاء في بيان بونابرت من ان «جميع الناس متساوون أمام الله تعالى»، بقوله «هذا كذب وجهل وحماقة.. كيف وقد فضل الله بعضهم على بعض!». هنا، كان بهاء طاهر موفقا أشد التوفيق، وهو يحاول أن يلتمس تفسيرا لهذا الموقف، حين أرجعه الى «ثقافة العصر» التي جعلت مثقفا مثل الجبرتي يرتاع من القول بالمساواة!

• أهمية وعي المثقف لما يحدث في مجتمعه من تحولات وتغيرات وتفهمه لطبيعة تكوينها. مثال ذلك ما حدث حين كانت مصر على وشك الاندثار في فترة وقوعها تحت الحكم العثماني والمملوكي، وهو ما توصّل اليه «رفاعة الطهطاوي» وعلل ذلك تعليلا عبقريا بارجاعه الى اهمال عمليات الريّ والصرف وانسداد قنوات النيل، وهو شريان الحياة لمصر، اضافة الى وعيه بأن ذلك ما كان ليحدث لولا فساد الحكم المستبد القائم على النهب والابتزاز واهمال مصلحة الرعية.

كما أتاح وعي رفاعة الطهطاوي بمتطلبات المجتمع خلال مرحلة التطور أن يلعب دورا رئيسيا في التغيير الثقافي، حين كان الساعد الأيمن لمحمد علي في سياسة التعليم العصري، فأنشأ المدرسة العليا للترجمة والادارة التي صارت مدرسة الألسن فيما بعد، وشارك في ترجمة العديد من الكتب والمراجع العلمية للمدارس العليا الجديدة، كما أصبح رئيسا لتحرير «الوقائع المصرية» أول صحيفة تنشأ في القرن التاسع عشر.

• «وعي «محمد علي»، المؤسس الكبير للدولة المصرية بـ»هاجس الحفاظ على الذاتية الثقافية وعدم الذوبان في الغرب»، وهو ما جعله يختار «رفاعة الطهطاوي»، الذي كان هو نفسه خارجا من اطار المؤسسة الأزهرية العريقة، باعتباره مرشدا دينيا للطلبة الذين بعثهم الى فرنسا، حتى لا يتم «نقل تلك الثقافة بشكل أعمى وانما من منظور نفس قادرة على التحليل والفرز واستيعاب الجديد في اطار ثقافة راسخة، وذلك

بالبحث في أوجه التماثل في التراث مع العناصر الايجابية من تلك الحضارة الحديثة».

• ضرورة ارتبـاط المثقـف بـتراث بلده وأمته، وهو الملمح الـذي التفت اليه بهاء طاهـر وتوقف أمامه في شـخصية «رفاعة الطهطاوي»، حين أوضح أن رفاعة الطهطاوي كان يلجأ «في بعض الأحيان الى تفسير جديد للتراث»، عندما ارتكز على «التراث الديني لبعث مفهوم الوطن الذي غاب عن رؤوس المصريين قرونا طويلة، فوجّه ضربة الى واحد من المفاهيم المتخلفة في المنظومة العثمانية «فرّق تسـد»، اذ ان وحدة الوطن تعني بالضرورة وحدة ابنائه والمساواة بينهم أيّا كان الدين الذي يعتنقونه. وهكذا دخلت كلمات ومفاهيم الوطن والأخوة الوطنية والحرية والمساواة في الثقافة السياسية».

• الفهم الصحيح الواعي للدين الاسـلامي الحنيف وتراثه العظيم، وهو ما سـيوجد في أقصى مداه فيما بعد عند رائد أزهري آخر وامام من أئمة الفكر المصري الحديث، هو الشـيخ «محمد عبده»، الذي كان منطلقه: «انّ القيم الخالدة للاسلام تستوعب كلّ تطور لمصلحة الانسان متى فهمنا الدين الحنيف على وجه صحيح».

• ضرورة الوعـي بطبيعة حركة المثقفين من الرواد وأنها لا تؤتي ثمارها فورا بل تتطلب وقتا لارتباطها بحركة الجماهير الواسعة من المتعلمين، وهو ما انتبه اليه بهاء طاهر خلال ربطه بين جهود الطهطاوي وما أنتجته مـن آثـار، فأوضح ان «الجهد الهائل الـذي بذله الطهطاوي في المجالات الثقافيـة المتعددة، كان يحتاج الى وقت كي تفيق الأمة وتستوعب أقواله، وهو ما سيتحقق بعد ذلك في منتصف عصر اسماعيل حين تخرج من المدارس عشرات الآلاف الى جانب مائة ألف تلميذ يدرسـون في المدارس».

• وعـي المثقـف بتكامل دوره مع أدوار الآخرين من أجل الصالح العام للوطن. وخير مثال لذلك عندما تسـلم الراية من «الطهطاوي» أزهري نابغ آخر، هو الشـيخ «محمد عبده»، «مجدد الدنيا بتجديد الدين» وفق تعبير الدكتور محمد عمارة. واذا كان الطهطاوي قد تطرّق الى فكرة المواطنة كأسـاس للمسـاواة، فان الشـيخ محمد عبده قد وضعها موضع التنفيذ حين شـارك في انشـاء الحزب الوطني، ووضع نص المادة الخامسة من برنامجه: «الحـزب الوطني حزب سـياسي (غير طائفي) مؤلـف من رجال مختلفي العقيـدة والمذهب وجميع النصارى واليهـود، وكلّ مـن يحرث أرض مصر ويتكلم لغتها منضم اليه، لأنـه لا ينظر الى اختلاف المعتقدات، ويعلم ان الجميع اخوان، وان حقوقهم في السياسـة والشرائع متسـاوية، وهذا مسلم به عند أخص مشايخ الأزهر الذين يعضدون هذا الحزب، ويعتقدون أن الشريعة (الاسـلامية) الحقة تنهـى عن البغضاء وتعتبر الناس في المعاملة سواء». بهذا الفهم المستنير لقضية الوحدة تقدم الحزب ببرنامجه الى الشعب، فالتف الشعب حول البرنامج.

• التأصيل لمفهوم الدولة المدنية العصرية التي تحقق المسـاواة والأمن والحرية لكل مواطنيها، مثلما اتضح من أفكار الشيخ محمد عبده خلال نقده لفكرة الحاكم – الامام حين نفى نفيا قاطعا بناء على فهم لصحيح

الدين أن تكون في الاسلام سلطة دينية سوى سلطة الموعظة الحسنة والدعوة الى الخير، وان الحاكم في المجتمع سواء كان اسمه سلطانا أو خليفة هو حاكم مدني من جميع الوجوه «واختياره وعزله أمران خاضعان لرأي البشر لا لحق يتمتع به هذا الحاكم بحكم الايمان»

• ضرورة مرونة المثقف وأهمية تماشيه مع ظروف المجتمع، وهو ما فعله الشيخ «محمد عبده» تحت ظلال القبضة القوية للمحتل، حين لم يكن ممكنا أن يتوجه المثقفون المصريون الى التحرير السياسي، فانصرفوا الى التحرير الاجتماعي، حيث واصل بعد عودته من اختفائه الأسطوري الذي دام تسع سنوات، جهوده للكشف عن المضمون التقدمي للدين الاسلامي، ومطابقته لروح العصر وكل عصر بما أعطاه من مكانة كبرى للعقل والاجتهاد في شؤون الحياة. كما دعى الى التعليم بالجهود الذاتية لمقاومة سياسة الاستعمار في الغاء عقل الأمة، ونجحت الفكرة حين تبنى أحد تلاميذه، وهو قاسم أمين، فكرة انشاء أول جامعة مصرية بأموال الشعب وتبرعاته، حتى كللت تلك الجهود بالنجاح، وأنشئت هذه الجامعة الأهلية في سنة ١٩٠٨.

• وعي المثقف بأهمية تواصل أجيال المثقفين المصريين وامتداد رسالتهم، مثلما كانت العلاقة بين «قاسم أمين» و«عبد الله النديم»، وذلك حين كان «قاسم أمين» وكيلا للنيابة عندما تم القبض على «عبد الله النديم» في زمن الاحتلال، وكان هو المسؤول عن التحقيق معه. لكنه كرس جهده لاطلاق سراحه، ونجح بمعاونة غيره من المثقفين في الضغط على السلطات والافراج عنه.

• قدرة المثقف على رؤية احتياجات المجتمع الجديد، اذ بينما تجلت جهود قاسم أمين» في التحرير، سواء أكان ذلك لعقل الأمة بالتعليم، أو دعوته الى تحرير المرأة من عبودية الرجل، حيث ألف كتابه «تحرير المرأة» ثم أعقبه في مطلع القرن الجديد بكتاب «المرأة الجديدة» داعيا فيه الى حق المرأة في التعليم وفي العمل على قدم المساواة مع الرجل، كي تحقق وجودها الانساني الذي جعل من سيادة الرجل نوعا من الاستبداد والظلم.

• تضافر جهود المثقفين معا بما يحقق صالح المجتمع، وهو ما بدا خلال دعوة قاسم أمين» لتحرير المرأة، التي كان خروجها للعمل يتطلب أسلوب حياة مختلف تختلط فيه بالرجال ويتطلب ارتداء زيّ مناسب لا يكبل حركتها، أي انه دعا باختصار الى سفور المرأة. ونظرا لكونه يتحرك في أرض مليئة بالألغام، تضافرت جهوده مع الشيخ «محمد عبده» الذي دعمه بقوة بأن أثبت أن كل جزئية مما يطالب به للمرأة من حقوق تتفق مع مبادئ الشرع الاسلامي.

• ادراك المثقف انّ نقطة البدء في تطوير المجتمع هي التعليم، مثلما فعل طه حسين» ابن الأزهر، وابن الجامعة الجديدة التي شارك في انشائها قاسم أمين وغيره من رواد التنوير في مصر. انه الامتداد لتراثنا الثقافي والتجديد الحي له في آن واحد. كان قد أدرك مثلهم ان نقطة البدء في هذا التغيير هي التعليم، فكانت أعظم اضافة له هي تحديد ماهية هذا التعليم والغاية منه. من أجل ذلك ألف كتاب «مستقبل الثقافة في مصر» في نهاية الثلاثينات

الــذي تضمــن برنامجا تفصيليا، صار دعوة الى ثــورة حقيقية: ثورة تقتلع طبائع الاســتبداد من النفوس، وتمكن للحرية من وجدان الفرد وفي مؤسســات المجتمع عن طريق التعليم. ذلك ان الحرية على حد تعبيره لا تســتقيم مــع الجهــل ولا تعايش الغباء. وقد نفذ العميد الخطوة الأولى من برنامجــه عندما عين وزيرا للمعارف في وزارة الوفــد الأخــيرة عام ١٩٥٠، التي أطاح بها الملك بعد أقل من ســنتين، تمكن خلالهما من أن يعمم مجانية التعليم قبــل الجامعي، وبفضله أتيح لمعظم أبناء الجيل أن يكملوا تعليمهم حتى التخرج من الجامعة. هنا، يتخيل بهاء طاهر لو أن الثورة أســندت الى طه حســين تنفيذ هذا البرنامج. لو تحقق ذلك ووصلنا الى عام ١٩٦٠ لوجدنا أن الجيل الناشي لن يكون بينه أمي واحد، وذلك لما عرف عن طه حسين من العزيمة والعناد في تنفيذ ما يؤمن به.

• قاعــدة معروفة أنه «اذا هــان أمر المثقفين على الحكام هان أمرهم على الناس»، فاذا قال الحكام في عهد السادات للناس ان كلّ المثقفين الذين كانوا يوقرونهم هم حفنة من الشيوعيين والملحدين والعملاء. وأزيح المثقفون من المنابر المؤثرة، وحل محلهم مجموعة من الهجائيين والمداحين حسب أوامر النظام، كان منطقيا أن «ينصرف الناس عن الثقافة جملة حين فقد المثقفون مصداقيتهم لدى الجمهور».

• اذا انحل تكتل المثقفين وتفككوا، كانت تلك فرصة العمر لانصار التريك وقد باركها أنصار التغريب الذين كانوا يزعمون من قبل أنهم حماة الرأي: أغمضوا عيونهم راضين عن مطاردة السحرة!

• اذا غابت القيادات الفكرية الحقيقية التي كانت تملك القدرة على التأثير والاقناع أولا ثم فرض الحكم مجموعة من أنصاره وصمم على أن يجعل منهم قيادة فكرية للمجتمع دون أن يكون لهم أيّ من مؤهلات القيادة أو الفكر، يترتب على ذلك تدني مســتوى ثقافة الجمهور العام، حتى أصبح هناك تســطيح كامل للوعي العام، وأصبحت أكثر الأفكار قابلية للانتشار هي أكثرها بساطة وسذاجة، وأكثر الكتاب والفنانين رواجا هم أكثرهم بدائية وتخلفا».

• أهمية وعي المثقفين - وفقا لكلمات بهاء طاهر – بأنّ «التحدي الحقيقي الذي يواجه مجتمعنا اليوم بالفعل، هو: هل يريد أن يواصل المســيرة التي بدأها أفضل أبنائه من المثقفين منذ مطلع النهضة؟.. هل يريد أن يســتكمل بناء الحرية لكي نعيش حياة العصر «الى غاية ما يستطاع بلوغه لادراك الحق والجمال والجلال في خلق لله جلّ شأنه».

ان يكن ذلك هو المبتغي فلابد أن تسترد الثقافة قيمتها في المجتمع. ولابد أن يصبح المثقفون هم قادة الفكر بالفعل، وأن تتاح لهم فرصة النفاذ الى العقول والوجدان لتكوين الرأي العام المسلح بالوعي والحرية معا».

حسين عيد